

الرسالة

(رومية ١٣: ١١-١٤؛
١٤: ١-٤)

يا إخوة إن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنًا* قد تناهى الليل واقترَبَ النهار فلندعُ عنَّا أعمالَ الظلمةِ ونلبسْ أسلحةَ النور* لنسلكنْ سلوكًا لا ثِقًا كما في النهار لا بالقصوفِ والسكرِ ولا بالمضاجعِ والعهرِ ولا بالخِصامِ والحسدِ* بل يسوا الربَّ يسوعَ المسيحِ ولا تهتموا بأجسادكم لقضاءِ شهواتِها* من كان ضعيفًا في الإيمان فاتخذوه بغيرِ مباحثةٍ في الآراءِ* من الناسِ من يعتقدُ أن له أن يأكلَ كلَّ شيءٍ. أمَّا الضعيفُ فيأكلُ بقولًا* فلا يزدري الذي يأكلُ من لا يأكلُ ولا يدين الذي لا يأكلُ من يأكلُ فإن الله قد اتخذهُ* من أنت يا من تدينُ عبدًا أجنبيًّا. إنه لمولاهُ يثبتُ أو يسقطُ. لكنَّهُ سيثبتُ لأنَّ الله قادرٌ على أن يثبتَهُ.

الإنجيل

(متى ٦: ١٤-٢١)

قال الربُّ إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوي أيضًا* وإن لم

أحد الغفران

ما يُعرف في الأوساط الشعبية ويسمى في الكتب الليتورجية «أحد مرفع الجبن» هو، بحسب مضمون القراءة الإنجيلية لهذا الأحد (متى ٦: ١٤-٢١)، التي تتلى على أسماع المؤمنين، «أحد الغفران»، وذلك استلهامًا لموضوع الآيتين الأوليين من هذه القراءة اللتين تتناولان فكرة

المغفرة. هذه القراءة مأخوذة مما يُعرف عند الإنجيلي متى بالعظة على الجبل، وهي خطاب طويل ليسوع (متى ٥-٧) يعرض فيه أمام خاصته السلوك المسيحي

الذي ينتظره المعلم من تلاميذه ومن كل من يتلمذ عليه بواسطتهم (متى ٢٨: ٧). والواضح أن إنجيل أحد الغفران يتألف من أجزاء ثلاثة، الأول يتناول موضوع الغفران ذاته (١٤-١٥)، والثاني الصوم (١٦-١٨)، والثالث الكنز الأرضي (١٩-٢١).

يأتي الحديث عن الغفران في هذا المقطع الإنجيلي مباشرة بعد صلاة «أبانا الذي في السموات» أو «الصلاة الربانية» (متى ٦: ٩-١٣). والمعروف أن هذه الصلاة تنطرق في طلبتها ما قبل الأخيرة إلى مسألة الغفران

«واترك لنا ما علينا، كما نحن نترك لمن لنا عليه». هذه الفكرة يعيد يسوع التشديد عليها مستخدمًا الصيغة الشرطية «إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوي أيضًا». من الواضح أن فكرة الغفران تتمتع بموقع مركزي في فترة التهيئة للصوم مرورًا به ووصولًا إلى الفصح. نحن بالغفران ندخل الصوم. وقد كان إنجيل الإبن الشاطر الذي قرأناه قبل أسبوعين ذكرنا برحمة

العدد ١١/٢٠٠٢

الأحد ١٧ آذار

أحد مرفع الجبن

البار ألكسيوس رجل الله

اللحن الثامن

إنجيل السحر الثامن

الأب السماوي تجاه بنيه وكيف يتجاوز هفواتهم، بغفرانه لهم، ويفتح معهم زمنًا جديدًا، زمن المصالحة: «كان ميتًا فعاش، وكان

ضالًا فوجد» (لو ١٥: ٣٢). ولئن كان الغفران هو الحالة الداخلية التي ينبغي لنا أن ندخل الصوم بها، فإنه أيضًا، وبالقوة عينها، ما نتوج به مسيرة صومنا وما يفجره عيد الفصح فينا. فالفصح زمن غفران بامتياز كما توحى الترنيمة البهية التي نختم بها صلاة سحر الفصح «اليوم يوم القيامة... ولنصفح لمبغضينا عن كل شيء في القيامة». ولكن، ماذا يعني أن أبانا السماوي يغفر لنا معاصينا إذا نحن غفرنا للناس معاصيهم تجاهنا؟ هل يعني هذا أن غفران الله مشروط

باستعدادنا نحن لأن نغفر للآخرين؟ إنجيل الإبن الشاطر يظهر أن رحمة الله مجانية لا ترتبط بموقفنا منه ومن الآخرين. فالأب في المثل هرع إلى ابنه العائد قبل أن ينطق هذا بكلماته ويقول انه نادم على ترك البيت الأبوي ومستعد أن يعمل كأجير لدى أبيه. كذلك، يبدو أن الوالد بقي متسامحاً صبوراً تجاه الأخ الأكبر رغم موقف الأخير المتشنج من أخيه العائد. غفران الله ورحمته، إذاً، غير مشروطين بأعمال نقوم بها نحن. ولنا في موت يسوع على الصليب أبلغ مثل على هذا، إذ هو مات من أجلنا ونحن بعد في خطايانا، غير منتظر أعمالاً صالحة نقوم بها. ولكن هذا، إذا جاز التعبير، ليس إلا الوجه الأول للعملة. وهناك وجه ثانٍ ينبغي ألا نغفل عنه، صحيح أن غفران الله، في المطلق، مجاني وغير مشروط، إلا أن علاقتنا بالأب السماوي ليست مجرد علاقة عمودية، أي بين كل واحد منا وبينه. هي أيضاً علاقة أفقية بمعنى أن الآخر، الأخ والقريب وحتى العدو، بعد أساسي من أبعاد علاقتي أنا بالله. هذا ما تريد الآيات الأولى من إنجيل اليوم أن تقولها. لا تستقيم العلاقة بالله إذا بقيت ثنائية صرف. فسلكي حيال الآخرين جزء لا يتجزأ من علاقتي بالله، لا لأن الأب السماوي يشترط علي لأسباب قانونية أن أغفر للآخرين حتى يغفر هو لي، بل لأن ابنه الذي بذل نفسه من أجلي ومن أجل الآخرين يماهي نفسه بهؤلاء، أي أنه يتوحد بهم بحيث يصير سلوكي تجاههم هو سلوكي تجاهه، في نهاية المطاف. هذا يعبر عنه، في أجلى بيان، إنجيل أحد الديوننة (متى ٢٥: ٣١-٤٦) الذي قرأناه الأحد الماضي وفيه: «بما أنكم فعلتم ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الصغار، فبني فعلتموه».

المقطع الثاني من القراءة الإنجيلية يعرّج على موضوع الصوم. «متى صمتتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين» يقول السيد. اللافت، أولاً، أن السيد يعتبر أن الصوم مسألة بديهية في صفوف تلاميذه، فهو لا يقول مثلاً «إذا صمتتم» مستعملاً صيغة الشرط. والكتابات المسيحية الأولى تؤكد بما لا يقبل الجدل والشك أن الصوم، ولا سيما قبل عيد الفصح، كان عادة درج عليها مسيحيو القرون الأولى منذ أقدم العهود. فنحن، إذا صمنا قبل عيد قيامة السيد، إنما نسير في ركاب هذا التقليد القديم الذي لم ينقطع منذ تأسيس الكنيسة. ولكن يسوع، في كلامه هنا على الصوم، يقلب مفهومه رأساً على عقب. إذ بعكس ما كان شائعاً في المجتمع اليهودي، لا يترافق الصوم مع الحزن أو مع حالة عبوس وإطراق، بل هو مصدر للفرح الداخلي. بيد أن النقطة الأبرز بالنسبة إلى يسوع هي أنه يريد صوماً يتجاوز الإنسان فيه كل روح ناموسية في التعامل مع هذه النشاط الروحي. كل «نشاط» إنساني قد يصبح مدعاة للعجب والانتفاخ، حتى الصوم. أن نفتخر بصيامنا مضر ليس فقط لأن الكبرياء ينزع منا شفافتنا، الضرورية لتعطي النعمة الإلهية ثمارها فينا، فحسب، بل لأنه ينصب حاجزاً بيننا وبين الآخرين. الافتخار بالصوم يؤدي بنا لا محالة إلى النظر إلى الآخرين نظرةً دنيويةً، ولا سيما أولئك الذين نعتقد أنهم لا يصومون. بإزاء هذا الخطر، يتخذ السيد موقفاً قد يلامس حدود التطرف. فالأفضل لنا أن نخفي صومنا ونظهر للبشر غير صائمين على أن نعرض أنفسنا لتجربة الافتخار بالصوم التي تفضي إلى العجب والازدراء بالآخرين.

المحطة الثالثة تتعلق بفكرة الكنز

تغفروا للناس زلاتهم فأبوكم أيضاً لا يغفر لكم زلاتكم* ومتى صمتتم فلا تكونوا معبسين كالمرائين. فإنهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم* أما أنت فإذا صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لئلا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفية. وأبوك الذي يرى في الخفية يجازيك علانية* لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون* لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون* لأنه حيث تكون كنوزكم هناك تكون قلوبكم.

تأمل

أيها الإخوة، ما هو الصوم الحقيقي؟ اعلموا هذا أننا لا نمدح الصوم الجسدي بحد ذاته بل من أجل فائدته للإنسان، لنفسه. يقول الرسول بولس: «إن الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة» (١ تيمو ٤: ٨). لذلك لم يرض الآباء بالصوم أياماً كثيرة متتالية، بل أمروا بأن

صلاة النوم الكبرى

«وأما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم» (متى ٢١: ١٧).
الصلاة والصوم ركيزتان روحيتان متلازمتان وغالبًا ما يذكرهما الرب يسوع معًا. لذا فقد رتب آباء الكنيسة أن تتكثف الصلوات في فترة الصوم الأربعيني المقدس لكي يؤتي هذا الصوم ثماره المرجوة فنتأهل للمشاركة في قيامة الرب وندخل الملكوت.

من صلوات الصوم الكبير المعروفة جدًا لدى المؤمنين، صلاة النوم الكبرى التي نرتل فيها «معنا هو الله» و «يا رب القوات كن معنا فإنه ليس لنا في الأحزان معين سواك، يا رب القوات ارحمنا». وتقام هذه الصلاة مساء كل يوم من الإثنين إلى الخميس من كل أسبوع.

جوهر صلاة النوم الكبرى يتناسب جدًا مع جوهر الصوم. فالصوم هو فترة يتمرس فيها الإنسان على التوبة والمصالحة مع الله والآخرين والذات. هو فترة يحاول فيها الإنسان العودة إلى الأحضان الإلهية متخليًا عن كل شهوة بشرية، وهذه هي التوبة. الصلوات والقراءات والمزامير التي نتلوها في صلاة النوم تعبر عن توبتنا الصادقة عن خطايانا، واتكالنا على الله. نقرأ المزمور ٥٠ «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك» الذي كتبه داود النبي تعبيراً عن توبته، كما ان معظم المزامير التي نقرأها تحمل معنى الحزن على الخطيئة والتوبة وطلب معونة الله. ونرتل «دموعاً أعطني يا الله، كما أعطيت قديماً المرأة الخاطئة...» تلك المرأة التي تابت ومسحت قدمي يسوع بخصل شعرها. كذلك نقرأ صلاة منسى ملك اليهودية التي كتبها عندما ندم على إدخال عبادة الوثن إلى اليهودية: «أيها الرب

الأرضي والكنز السماوي. «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض» يقول المعلم. ما علاقة هذا بزمن الصوم؟ ولماذا اختار واضعو ترتيب القراءات الليتورجية أن يدخل هذا المقطع أيضاً (متى ١٩: ٢٠-٢٠)، وهو ظاهرياً لا علاقة له بالصوم، في قراءة هدفها إبعاد المؤمنين لزمن الإمساك؟ الحل تعطيه الآية الأخيرة من المقطع «حيث تكون كنوزكم هناك تكون قلوبكم». لا ينكر السيد على تلاميذه أن يكون قلوبهم في مكان ما. فهو، بوصفه خالقاً، يعرف طبيعة الإنسان ويعرف انه من البديهي أن يتعلق بأمور عدّة. المسيحية لا تنكر على الإنسان طاقة التعلق العاطفي أو تحكم عليها على أنها سيئة، كبعض الأديان الأخرى، ساعية إلى تعطيلها وتدميرها. غير أنها تود توجيه هذه الطاقة وتطويعها بحيث لا يتركز تعلق الإنسان على ما هو فان وزائل على حساب ما هو باق وأبدي. والحق أن التعلق المفرط بما هو زائل، أكان مادياً أم معنوياً، إنما يعكر مسيرة الصوم التي من المفترض أن يعود المرء فيها إلى اكتشاف ما هو جوهرى، وذلك ابتداءً من ترويض نفسه على الاكتفاء بما هو جوهرى في المأكل والمشرب والاستغناء عن الزائد وغير الضروري: «خبزنا الجوهري أعطنا اليوم». طبعاً، هنا أيضاً تبرز مركزية علاقة الصائم بالآخوة التي تحدثنا عنها أعلاه، والتي من دونها لا تستقيم العلاقة بالله. أن نكتفي بما هو ضروري يعلمنا أن ما يفيض عنا ملك للقريب، بحسب تعبير القديس يوحنا الذهبي الفم، بحيث تصبح محبة الآخرين، ولا سيما الأعداء وهم أولى بمحبتنا، وسيلة نكنز لنا عبرها كنوزاً سماوية لا تفنى. في زمن الصوم نعيد اكتشاف واحد من أهم أبعاد إيماننا المسيحي: الآخر هو الكنز الحقيقي.

يؤكل قليلاً في كل يوم دون أن يشبع البطن. هذا هو الصوم المعتدل الذي يتكلم عنه الكتاب: أن لا يدع الإنسان نفسه تستسلم إلى شهامة الحلق والبطن. أما نوعية الطعام وكميته فلتكن نسبة إلى كل قامة جسدية حتى يحافظ على صحته. يأكل المريض وفقاً لحالته، ويطلب الإنسان عامة ما هو لحاجته لا لتنعّمه، الشراب لا السكر والخلاعة...

لقد كرم المسيحيون الصوم من أجل تطهير النفس. إذ ما الفائدة إذا امتنعنا عن الطعام الجسدي في حين أن شهوات جسدية تسود علينا؟ وما الفائدة من العطش إذا كنا نسكر لا من الخمر بل نضطرب من الغيظ والحسد؟ ما الفائدة إذا ابتعدنا عن الموائد الفاخرة وعندنا نفس متكبرة؟ ... ما الفائدة إذا تحررنا من المأكل الكثيرة وذهننا ممتلئ من الأفكار والاهتمامات الباطلة؟...

الصيام النافع إذاً هو الذي يتم من أجل تبديد الشهوة وكذلك من أجل اتضاع النفس، من أجل تحوّل الكراهية، من أجل إطفاء الغضب، من أجل

الرب الضابط الكل... التواب على مساوئ الناس... وضعت التوبة لي أنا الخاطئ، فإني قد أخطأت أكثر من عدد رمل البحر. قد تكاثرت أثامي يا رب... الآن أحنى ركلة قلبي مبتهلاً إلى صلاحك... لكني أسألك متضرعاً اغفر لي يا رب... لأنك أنت هو الله إله التائبين». وأخيراً نسجد مع صلاة التوبة للقديس أفرام السرياني: «أيها الرب وسيد حياتي... ثلاث سجدات، واضعين رأسنا في تراب الأرض تعبيراً عن توبتنا وانسحاقنا وطالبين معونة الرب. السجدات تدل على أننا رغم سقوطنا في الخطايا سوف ننهض بالتوبة وبمعونة الرب.

في صلاة النوم الكبرى نضع أنفسنا بين يدي الله بعد أن انتهينا من عناء النهار: «إذ قد عبرت النهار أشكرك يا رب، وأسألك أن تهب لي العشيّة مع الليلة بغير خطيئة يا مخلص وخلصني». وتحتنا المزامير على تسليم أنفسنا لله: «عليك يا رب توكلت فلا أخزي، في يديك أستودع روحي» (مز ٣٠)، «إليك يا رب رفعت نفسي، إلهي عليك توكلت» (مز ٢٤). نسلم أنفسنا إلى الله ونتضرع إليه كي يستجيب لنا: «اللهم اصغ إلى معونتي، يا رب أسرع إلى إغاثتي» (مز ٦٩)، «يا رب استمع صلاتي وانصت بحقك إلى طلبتي، استجب لي بعدك» (مز ١٤٢). وننهي صلاة النوم بالصلاة: «واعطنا أيها السيد إذ نحن منطلقون إلى النوم راحة نفس وجسد، واحفظنا من رقاد الخطيئة المدلهم ومن كل التذاذ شهوات الظلام الليلية... أطفئ سهام الشرير المحمأة الثائرة علينا بغش... وامنحنا يا الله عقلاً ساهراً وفكراً طاهراً وقلباً مستيقظاً...».

ننطلق هذا الأسبوع صائمين ومتجهين نحو فصح الرب، غير

خائفين من عثرات المجرب لأن «معنا هو الله فاعلموا أيها الأمم وانهزموا لأن الله معنا»، ومتخذين والدة الإله والقديسين شفعاء لنا يساعدوننا في جهادنا: «يا رب لولا ان قديسيك يكونون شفعاء لنا... فكيف كنا نتجاسر أن نسبحك يا مخلص...»، و«كثيراً تكاثرت ذنوبي يا والدة الإله، فإليك لجأت يا نقيّة طالباً الخلاص، فافتدي نفسي الضعيفة وتشفعي إلى ابنك وإلهنا أن يعطيني غفران المساوئ التي فعلتها، أيتها المباركة وحدك».

في الصوم

من يصم يصبح خفيفاً كما لو كانت له أجنحة فيصلي بنشاط كلي ويخمد الشهوات الشريرة ويستعطف الله ويجعل نفسه المتعجرفة متضعة، لذلك صام الرسل أكثر الأوقات. ومن يصلي صائماً يملك جناحين أخف من النسيم، فلا يهذي ولا يتثأب ولا تنحط قواه في وقت الصلاة كما يحدث مع الكثيرين. فهو أسرع من لهيب النار وأرفع من الأرض، وهكذا يظهر عدواً ومحارباً للشيطان، لأنه لا أحد أقوى من المصلي بحرارة. فإذا كانت تلك المرأة قدرت أن تستعطف القائد القاسي الذي لم يخف ولم يخجل من البشر، فكم بالحري يستعطف الله من يقف أمامه رافضاً المذاق العالمية وتاركاً أنواع المأكّل الشهية. وإذا كان جسدك ضعيفاً لا يقوى على الصيام دائماً فلا يجوز لك أن تكون ضعيفاً في أوقات الصلاة وفي الإمساك عن أنواع الطعام، فإن كنت لا تقدر على الصيام فلا تستسلم للرفاهية على الأقل، فبالاعتدال تقدر أن تزجر حدة الشيطان الذي يحب الرفاهية والسكر اللذين هما ينبوع الشرور ومصدرها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

تطهير الفكر وإتمام الصلاة بنقاوة. إن كنت غنيماً، قدّم فيض طعامك للبائس. إن كنت تصوم، فأنت تشارك المتألمين، بل أيضاً تملك مع المسيح إلى الدهر. فإنك عن طريق الصوم تصبح شبيهاً بموته ممّا يجعلك شريكاً في قيامته ووارثاً للحياة معه.

إن جرب من يصوم، يتخطى التجربة، وإن لم يجرب، يحافظ على سلامة جسده ونفسه مستعبداً جسده حسب تعبير بولس الرسول (١ كور ٩: ٢٧) حتى لا يظهر غير مجرب. إن كان الرسول نفسه يجزع، فكم بالأحرى نحن؟ من يصوم يستعبد جسده ويجعل نفسه مختبراً. أما الذي يغذي جسده، الذي سوف ينحل، بالأطعمة الفاخرة، فيعيش للمأكّل والمشرب (ولا يأكل لكي يعيش)، مثل الحيوانات التي تأكل كثيراً قبل أن تذبح. يأكل ما يزيد عن شبعه، فيسقط في الشهوات الرديئة، ولا يعمل شيئاً آخر سوى تهيئة جسده غذاءً للذود. حسناً رتل داود: «أي فائدة لجسدي عند انحداري إلى الجحيم؟» (مز ٢٩: ٩).

القديس

غريغوريوس بالاماس